

القاهرة المعزية

وجوب الاحتفاء بعيدها الألفى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أعوام قلائل احتفلت فرنسا بذكرى إحدى مدنها العتيقة، وهي مدينة قرقشونة (كاركاسون) الرومانية لمناسبة مضى ألفى عام على قيامها؛ ومازلنا نذكرها أفاضت به الأنباء يومئذ طراقة هذا الاحتفال وروعته وأهميته من الوجهة القومية. وقرقشونة إحدى مدن ولاية سبتيمانيا، السبعة، وقد كانت مدى حين معقلا إسلاميا في جنوب فرنسا؛ وما زالت على صغرها وتواضعها شهيرة بآثارها الرومانية وتاريخها الخافل أياها الرومان والقوط والعرب

وإن مصر لتستطيع أن تفخر بمدنها الألفية عنوان تراث مجيد وحضارة خالدة؛ ويكفي أن نذكر في هذا المقام عاصمتها الجليلتين، الإسكندرية ثغرها العظيم الثالث، والقاهرة عروس العواصم الإسلامية؛ فقد قطعت الإسكندرية من عمرها المديد أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا؛ وأشرفت القاهرة على ألفها؛ وإذا كانت العاصمة الكبرى تقترب من عيدها الألفى بخطى سريعة فإن من بواعث الأسف أن يقترب هذا اليوم التاريخي العظيم دون أن تتأهب مصر للاحتفاء به واحاطته بما يجب من ضروب الاشادة والتكريم؛ ومن بواعث الأسف ألا يرتفع حتى اليوم صوت رسمي ينبه إلى هذا الحادث القومي الجليل، وينوه بخطورته وأهميته، ويدعو المختصين إلى الاهتمام بأمره

ولقد احتفلت مصر بالأمس بالعيد المئوي لوزارة معارفها، واحتفلت من قبل بالعيد المئوي لمدرسة الطب، والعيد المئوي للمدرسة الخديوية، والعيد الخمسيني لإنشاء المحاكم الأهلية، وغيرها من المواقف والحوادث القومية، وأدركت ما وراء الاحتفاء بهذه المناسبات التاريخية من بحث للباضى، وتكريم للذكريات المجيدة، وإذكاء للعاطفة القومية، ووصل بين

التقى والأسد، ولكنها مبارزين إرادة ابن طولون وإرادة الله. وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الأذى عمل، ولم يكن منه بازاء لحم ودم، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل في روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة، ولا يسرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التي هو مؤمن بها ومتوكل عليها كحياة الدودة والفلة، وما دونها من الهوام والذر.

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى، فهو ليس بين يدي الأسد ولكنه هو والأسد بين يدي الله، وكان مندجما في يقين هذه الآية: «واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا»

ورأى الأسد رجلا هو خوف الله، تخاف منه، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية، فليس في الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة، ومن ذلك ليس في الأسد ذك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة.

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رأى الأسد ميتا ولم يجد فيه (أنا) التي ياكلها، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة أو اختلجت في نفسه خالجة من الشك، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد فتمزق في أنيابه ومخالبه

قال: وانصرفنا عن النظر في السبع إلى النظر في وجه الشيخ فإذا هو ساهم مفكر، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظنا في تفكيره، فن قائل أنه الخوف أذهله عن نفسه، وقائل إنه الانصراف يعقله إلى الموت، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب، وزعم جماعة أن هذه حاله من الاستغراق يسحر بها الأسد. وأكثرتنا في ذلك وتجارتنا فيه حتى سأله ابن طولون: ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر؟

فقال الشيخ: لم يكن على بأس، وإنما كنت أفكر في لعاب الأسد أهو طاهر أم نجس.....

بمنه در قلم

(منظما)

مراحل تاريخنا. بيد أن هذه الذكريات والمناسبات الحافلة تبدو ضئيلة متواضعة إلى جانب الاحتفاء بالعيد الألف لمدينة القاهرة

ذلك أن الاحتفاء بالعيد الألف للقاهرة المعزية يعتبر حادثاً منقطع النظير في تاريخ مصر الإسلامية . وليس بين عواصم العالم الكبرى سوى مدن قلائل قطعت عمرها الألف؛ وأشهرها وأعظمها من الوجهة التاريخية هي بلا ريب أثينة والاسكندرية ورومه وقسطنطينية . وإذا كان العالم الإسلامي يضم عدة مدن ألفية أخرى ، فإنه ليس بينها من تضارع القاهرة في ضخامتها وجلالها وأهميتها السياسية والفكرية والاجتماعية

ألف عام هجرية كادت تنقضى على قيام المدينة الفاطمية المتواضعة ، القاهرة المعزية أو قاهرة المعز لدين الله ؛ ففي ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ٧ يولييه سنة ٩٦٩ م ، دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي مدينة مصر أو مدينة الفسطاط غازية ظافرة ، وعسكرت عند مغيب الشمس في الفضاء الواقع في شمال غربي الفسطاط ؛ وفي نفس الليلة وضع القائد جوهر تنفيذاً لأوامر المعز أول خطة في مواقع المدينة الجديدة التي اعتزم الفاطميون إنشاؤها بمصر لتكون لهم منزلاً ومقلاً . وحفر أساس قصر جديد في نفس الفضاء الذي نزل فيه جيشه ، فكان هذا مولد القاهرة التي سميت كذلك تفاؤلاً وتيمناً بالنصر ؛ وقامت المدينة الجديدة بسرعة توسطها القصور الفاطمية والجامع الأزهر الذي أنشئ بعد ذلك بأشهر قلائل (في جمادى الأولى سنة ٣٥٩) ليكون منبراً للدولة الجديدة وملأذاً لدعوتها ؛ ولم تلبث أن غدت منزل الخلافة الفاطمية منذ قدم المعز لدين الله إلى مصر بأمواله وأهله وبطائه وتوايت أجداده ، واستقر في عاصمته الجديدة في رمضان سنة ٣٦٢ هـ (يولييه سنة ٩٧٣ م)

ولبثت القاهرة مدى حين ملوكة عسكرية لاتضم سوى القصر الفاطمي ودواوين الحكم وخزائن المال والسلاح ومساكن الأمراء والبطانة ومن إليهم من الاتباع النازحين في ركب الغزاة ؛ ولكن لم يمض جيل واحد حتى اتسعت

جنبات المدينة الجديدة ونمت نمواً عظيماً وترامت معالمها وأحياؤها إلى ماوراء السور الذي أنشأه حولها القائد جوهر واتصلت بمدينة مصر (الفسطاط) وامتزجت المدينتان وتداخلتا وصارتا تكويناً معاً مدينة من أكبر وأعظم مدن الإسلام في العصور الوسطى . وكان اسم القاهرة يطلق اصطلاحاً على المدينة الفاطمية التي يضمها السور الذي أنشأه القائد جوهر ثم وسعه وأعاد إنشاؤه أمير الجيوش بدر الجبالى في أواخر عهد المستنصر بالله (سنة ٥٤٨٦ هـ) وأدخل فيه عدة أحياء ومواقع جديدة ؛ وأما المناطق التي بقيت خارج السور والتي كانت تمتد فيما بين الجامع الطولوني وقلعة الجبل إلى الجهة المقابلة على ضفة النيل ، فكانت تعرف بظاهر القاهرة ، وكان اسم مصر يطلق دائماً على الفسطاط القديمة ، ويطلق على المدينتين معاً مصر القاهرة ؛

وما زالت معالم القاهرة المعزية وحدودها القديمة قائمة يحدها من الشمال موقع باب الفتوح وباب النصر والسور الذي يصلها وهو بقية من سور أمير الجيوش بدر الجبالى ، ويحدها من الجنوب باب زويلة ، ومن الشرق سفح الجبل ، ومن الغرب موقع الخليج القديم ، وما يلي ذلك حتى ضفة النيل ، وما يزال الجامع الأزهر قائماً وسط المدينة القديمة حيث قام منذ ألف عام تخطيط به معظم الأحياء والدروب الفاطمية القديمة بعد أن تغيرت أسماؤها ومعالمها

ولقد شهدت القاهرة في ظل الخلافة الفاطمية ألواناً من العظمة والبهاء والبذخ قلما شهدتها في ظل دولة إسلامية أخرى ؛ ومع أنها نمت بعد ذلك نمواً عظيماً ، واتسعت جنباتها وأحياؤها حتى غدت في القرن التاسع الهجري اضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين ، فإنها لم تسطع بمثل ما سطعت في عهدها الأول ، ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة ، ورسومها وأعيادها الباذخة ولياليها وحفلاتها الباهرة ؛ كانت القصور الفاطمية آية الفخمة والبهاء وإن الخيال ليضطرم إلى الذروة حينما يستعرض تلك الصور الرائعة التي تقدمها إلينا الروايات المعاصرة من عظمة الخلافة الفاطمية وروعها في مظاهرها العامة ، وعن حياة الخلفاء

الخاصة داخل القصر وأبائه وأجنحته المنيفة. وقد كان القصر الزاهر يشرف من الغرب على ميدان شاسع يسع عشرات الألوف من الجند والنظارة يعرف بميدان بين القصرين، وهو اسم شهير في تاريخ القاهرة المعزية شهرة ميدان القديس مرقس، (سان ماركو) في تاريخ البندقية، وقد سمي كذلك لوقوعه بين القصر الفاطمي الكبير والقصر الصغير المواجه له وهو المعروف بالقصر الغربي؛ وقد لبث بين القصرين أيام الدولة الفاطمية مسرحاً لأعظم المواكب والمظاهرات الخلاقية والعسكرية، والحفلات العامة، ولبث بعد زوال الدولة الفاطمية عصرًا أعظم ميادين القاهرة، وأزخرها عمارة وأشدّها احتشاداً، وإنك لتستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الخلافة الفاطمية والشعب القاهري في ميدان ما بين القصرين، كما تستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الجمهورية البندقية في ميدان القديس مرقس، كلاهما امتزج بحياة الدولة والشعب، واتخذ مكانة فيها.

ومنذ بضعة أعوام شعرت بعض الجهات الرسمية بأن الجامع الأزهر يدنو من عمره الألفي. وفكرت في أن تحتفل بهذا العيد احتفالاً عظيماً يتفق مع روعته التاريخية، ووضع بالفعل برنامجاً لتنظيم هذا الاحتفال. واندبنت لجنة لوضع تاريخ شامل للأزهر منذ قيامه إلى يوم عيده، ثم وقف المشروع لأسباب غير معروفة؛ بيد أن الذي يثير الدهشة حقاً، هو أن تخطر للقائمين بالأمر فكرة الاحتفال بالعيد الألفي للجامع الأزهر دون أن تخطر لهم فكرة الاحتفال بالعيد الألفي لمدينة القاهرة، مع أن القاهرة تسبق الأزهر في مولدها بعدة أشهر؛ وقد أنشئ الأزهر في الأصل، لا ليكون جامعة للدراسة، ولكن ليكون مسجداً للعاصمة الفاطمية الجديدة وليكون منبراً للدولة الجديدة ومعتقلاً لدعوتها

فاذا كان مما يحمد أن فكر القائمون بالأمر في تخليد الذكرى الألفية للجامع الشير، فإن ما يبعث إلى الأسف أن يفوتهم حتى اليوم التفكير في تخليد ذكرى القاهرة الألفية؛ وهذه الذكرى الخالدة تدنو بسرعة، فقد وضعت

أسس العاصمة الفاطمية كما رأينا في منتصف شعبان سنة ٣٥٨ هـ في منتصف شعبان سنة ١٣٥٨ هـ، أعني بعد نحو عامين ونصف فقط تبلغ القاهرة المعزية عمرها الألفي المديد وبعد أشهر قليلة من ذلك التاريخ، أعني في جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ يبلغ الجامع الأزهر عمره الألفي أيضاً، إذا اعتبرنا تاريخ البدء في إنشائه وهو جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ - وأنه لمن بواعث الفخر حقاً أن يكون تاريخنا حافلاً بمثل هذه الذكريات العظيمة التي هي عنوان تراث قومي مؤثر فليتنا أن نفكر ملياً في الاحتفاء بهذين العيدين القوميين الجليلين وإذا كان قد فاتنا حتى اليوم أن نؤلف للاحتفاء بهما اللجان الخاصة، وأن نضع البرامج اللائقة، فإن ما يزال ثمة متسع من الوقت لتحقيق هذه الأمنية؛ ولقد ارتبط اسم القاهرة المعزية والأزهر دائماً حتى أنه ليكفي أن تؤلف هيئة واحدة للقيام بهذه المهمة، فتضع للاحتفال بعيد القاهرة الألفي برنامجاً خاصاً وتضع برنامجاً آخر للاحتفال بالعيد الألفي للجامع الأزهر، - يراعى في كل منهما ظروفه ومناسباته الخاصة؛ ومن الطبيعي أن يحتوى البرنامج على وضع تاريخ ألفتى شامل لمدينة القاهرة وتاريخ شامل للجامع الأزهر؛ وأن تنظم في العيدين طائفة من المهرجانات العلمية والاجتماعية الباهرة وأن يدعى لعيد القاهرة رؤساء البلديات في جميع المدن الكبرى ممثلين لحكوماتهم ومدنهم، كما يدعى لعيد الأزهر ممثلو الجامعات في جميع أنحاء العالم، وأن ينظم بهذه المناسبة حج خاشع إلى معالم القاهرة المعزية وآثارها الباقية ومنها الجامع الأزهر، وأن تقام بها الأعمدة واللوحات التذكارية المختلفة، وأن تفتح بهذه المناسبة طائفة من المشاريع العلمية والخيرية

وأنه لما يسبغ على هذه الاحتفالات روعتها وجلالها، أن تقام إلى جانب هذه المعالم الخالدة وفيما بينها.

فهل يحدث هذا النداء المتواضع أثره؛ وهل يبادر أولو الأمر فيخذلوا الأبهة العاجلة لتحقيق هذه الأمنية القومية الرفيعة؛ وهل تشهد القاهرة المعزية، ويشهد الأزهر كلاهما عيده الألفي في فيض من الروعة والجلال؛ أم تفيض هذه الذكريات العظيمة في غمر الجدل والمناقشات العقيمة؟

محمد عبد الله عمار